الفصل السابع

الغزو الثقافي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

الغزو الثقافي

مدخل :

يعتبر الغزو الثقافي، وهو بطبيعة الحال يشمل الغزو الفكري، أحد أشكال الاستعمار الجديدة. ولعل عودة تاريخية خاطفة تكشف لنا الغطاء عن جذور هذا الغزو الثقافي، وذلك كما أثبتته الأحداث، فعلى الرغم من استمرار الحروب الصليبية قرابة قرنين من الزمان إلا أن الخاتمة كانت لصالح المسلمين وفي صفهم، حين استطاع القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي أن يجمع صفوفهم ، وأن يوحد كلمتهم، ومن ثم يضعهم على الطريق السليم، طريق حماة الدين الأوائل ، والمدافعين عنه ، وهو طريق الجهاد العظيم، فكان أن هزموا ملوك أوروبا وأباطرتها وقوادها، وردوهم على أعقابهم خاسرين يجرجرون أذيال الهزيمة، ويلعقون جراح الذل والخزي والعار.[1]

ومرت ظروف أخرى بالعالم الإسلامي انهارت خلالها الخلافة الإسلامية في بغداد تحت ضربات جحافل التتار الذين اندفعوا من أواسط آسيا، يحرقون ويخربون ويدمرون، كالإعصار العاتي الذي لا يجد من يصده، أو يقف في طريقه.

وشاء الله، جلت قدرته، أن توحد كلمة المسلمين تحت قيادات إسلامية مؤمنة واعية مجاهدة، مثل شيخ الإسلام « أحمد بن تيمية » ، وشيخ الإسلام «العز بن عبدالسلام»، وقطز.. وغيرهم، فأوقفوا اندفاع ذلك الإعصار العاتي، وردوا أصحابه على أعقابهم خاسرين، في معركة «عين جالوت» الشهيرة.

وفي الشمال الشرقي من العالم الإسلامي ظهر الأتراك العثمانيون

---

(١) لمن أراد أن يتزود حول هذا الموضوع أن يعود لكتاب الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

بدولتهم الفتية، تلك التي حملت لواء الإسلام خفاقًا، واجتازت به الفاصل الضيق بين آسيا وأوروبا ، وتوغل مجاهدوها في قلب أوروبا الشرقي، مجاهدين في سبيل الله، حتى دقوا أبواب « فيينا » عاصمة النمسا. وصعقت أوروبا حين وجدت نفسها، وقد انحشرت كالبندقة في كسارتها، فهؤلاء هم المسلمون في شرقها يدقون أبوابها، بينما إخوانهم في أقصى الغرب قد فتحوا بلاد الأندلس، وأقاموا فيها حضارة فتية ذات إنجازات متميزة في كل مجال، وهم لم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يسعون لفتح فرنسا كذلك.

ومرت فترة من الزمان تيقظت خلالها أوروبا، في الوقت الذي أخلد فيه المسلمون للنوم العميق، والسبات القاتل، وضاعت أيام عزيزة وغالية عليهم، خاصة حين عرفت أوروبا طريقها إلى العلوم والكشوف، بعد أن أخذ علماؤها أسس تلك العلوم والاكتشافات من علوم المسلمين ومعارفهم ومكتشفاتهم،[٢] بل ومن تطبيقاتهم العلمية في مجالات الحياة المختلفة.[*]

بدايات الاستعمار الأوروبي للمنطقة العربية :

وران صمت مريب على مياه البحر المتوسط، تلك المياه التي ارتادها المجاهدون المسلمون فيما سبق، حتى حولوها إلى بحيرة إسلامية، ثم فزعت هذه المياه في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حين خرجت من شواطئ فرنسا الجنوبية حملة بحرية قوية متقدمة، وكانت تحمل ـ ضمن ما تحمل ـ المدفع.. والبارود.. والمطبعة.. !!

ووصلت حملة « بونابرت » إلى مصر ، أو إلى الشواطئ المصرية عام ١٧٩٨م، مفتتحة عصراً جديداً ، بين الشرق المسلم، والغرب النصراني، ودفع المسلمون غاليًا .. وغاليًا جداً .. ثمن نومهم ، وثمن ابتعادهم عن الدين، وثمن

---

(٢) محمد عبدالعليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠هـ.

(*) لمن أراد الاستزادة في هذا المجال أن يعود لكتاب محمد جلال كشك، رحمه الله؛ «ودخلت الجيل الأزهر»، في طبعته الثالثة الصادرة عن دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

تركهم الفريضة الجهاد، وكذا ثمن بعدهم عن طلب العلم والتبحر فيه، كما حثهم الإسلام من أول آية فيه، ومازال المسلمون ـ منذ ذلك الحين ـ يدفعون .. حتى اليوم..!!

وإذا كان « بونابرت » قد افتتح عصر الحروب الصليبية الجديدة بدخول خيله إلى ساحات الأزهر الشريف، فإن هذه الحروب لم تنقطع ، ولم تتوقف ـ في واقع الأمر ـ منذ ذلك التاريخ، وهي تقترب الآن من نهاية قرنها الثاني ، فلا يزال التاريخ يذكر الحقد الدفين الذي جعل أحد قواد أوروبا النصرانية يقف في نهاية الحرب العالمية الأولى، أمام قبر صلاح الدين ، في دمشق ، ليقول في شماتة لا تليق بالرجال الكبار : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » ، وما هكذا يفعل القادة الشرفاء .. أمام قبور الأعداء ..!![٣]

وعلى طريق هذه الغزوة الصليبية الجديدة دفعت شعوب إسلامية كثيرة من دماء أبنائها ، ومن أرواحهم، ففي الجزائر دفعوا.. وبغزارة شديدة، وكذا في الشمال الافريقي عامة حدث هذا، ولن ينس التاريخ، ولا ينبغي للمسلمين أن ينسوا ، ما فعلته إيطاليا النصرانية مع ليبيا المسلمة، ومع مجاهديها، وعلى رأسهم الشيخ الشهيد « عمر المختار » . وفي مصر حارب المسلمون موجات الصليبية الجديدة، التي تمثلت في الحملة الفرنسية ، وكذا الحملة الإنجليزية الأولى على رشيد عام ١٨٠٧م ، ثم الحملة الإنجليزية الكبرى عام ١٨٨٢م، والتي أذلت شعب مصر، ونهبت مقدراته على مدار ثلاثة أرباع القرن، ومازالت الهجمة الصهيونية التي اشتركت فيها انجلترا وفرنسا واسرائيل عام ١٩٥٦م، مازالت ماثلة في الأذهان وفي النفوس، ولا يزال بعض ضحاياها من الجرحى والمشوهين يعيشون بين الناس إلى يومنا هذا .[*]

---

(٣) حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

(*) لا أظن أن التاريخ سوف ينسى تلك العملية الجراحية البشعة التي قام فيها الأطباء الإنجليز (المتحضرين..!!) بنزع عيني أحد المجاهدين المصريين ليزرعوها مكان عيني ضابط بريطاني فقد عينيه في الحرب.. ويتحدثون عن التحضر.. وعن حقوق الإنسان.. !!!

وفي كثير من بلاد افريقيا وآسيا دفع المسلمون ، ومازالوا يدفعون الكثير من دمائهم وأرواحهم ومقدرات أوطانهم.. فقط.. لأنهم مسلمون ، وفقط.. لأن أعداءهم الصليبين الجدد لا يريدون أن ينسوا أنهم هزموا ذات يوم على أيدى المسلمين، كما أنهم يخشون أن تقوم للإسلام قائمة من جديد، وقد تعلموا من دروس التاريخ أن المسلمين حين يتحدون ، وحين يعودون إلى دينهم القويم يكون لهم شأن آخر.

استمرار الاستعمار حتى وقتنا الحاضر:

وإذا كان بعضنا يتصور أن هذا الذي نقول هو مجرد تاريخ مضى وانقضى فإننا نحيلهم إلى ما يجري على أرض فلسطين اليوم، وما كان يجري على أرض أفغانستان فقط منذ بضع سنوات(*) ، ولا زلنا نعيش ونسمع ونرى ، ومعنا العالم أجمع، مأساة المسلمين في « البوسنة والهرسك » ، وكذا في «الشيشان» ولا ينبغي أن يخطر بذهن إنسان أن الصرب والروس المجرمين كان يمكنهم أن يقوموا بكل ما قاموا به من مذابح واعتداءات واغتصابات ضد المسلمين لولا أنهم يلقون المعونة والتأييد من العالم الغربي النصراني كله في أوروبا وأمريكا وروسيا، حيث يلقون التأييد في الأمم المتحدة، في الوقت الذي يمنع فيه السلاح عن المسلمين في البوسنة والهرسك، وتعتم الأخبار التي تأتي من بلاد الشيشان المسلمين، بينما يغدق السلاح على مجرمي الصرب ، ويمدونهم بالتمويل والتدريب اللازمين، وما كل ذلك إلا لخوف أوروبا من أن تقوم للإسلام دولة في قلب أوروبا قد يغري وجودها ـ في المستقبل ـ أعدادا من الأوروبيين بالدخول في الإسلام.

بينما يصمت العالم الغربي على المذابح التي تجري للمسلمين في الشيشان على أيد الروس المجرمين لأنهم يخشون أن تمتد شرارة الاستقلال والحرية

(*) يمكن مراجعة كتاب « أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين » ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٤١٠هـ، للمولف.

من بلاد الشيشان إلى باقي الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا والتي يحتلها الاتحاد السوفييتي عنوة وبقوة السلاح، وما ذلك إلا لأنهم نصارى مثلهم، ومن ثم ينبغي علينا نحن المسلمين أن نعي اختلاف المعايير في السياسة الدولية ومنابع ذلك الاختلاف.

وإذا كان المصريون قد استطاعوا بعد كفاح طويل مرير أن يكسروا شوكة الإنجليز ويخرجوهم من مصر ، وإذا كان الجزائريون قد استطاعوا بتضحيات رهيبة أن يرغموا الفرنسيين على مغادرة الجزائر، وكذلك فعل الليبيون مع الإيطاليين المستعمرين، وإذا كان المجاهدون الأفغان قد مرغوا سمعة الاتحاد السوفيتي العسكرية في الوحل، وأذلوا جنرالاته وجعلوهم يغادرون التراب الإسلامي في أفغانستان مهزومين مدحورين، وإذا كان شباب الانتفاضة الفلسطينية مازالوا شوكة مؤلمة في جسد الكيان الصهيوني.. أقول إذا كان ذلك هو الذي حدث، ولا يزال يحدث في بلاد المسلمين ، إلا أن قضية «البوسنة والهرسك » لها وضع خاص لأن رعب الصليبيين أصبح موجهًا لمواطئ أقدامهم، إذ أنه رغم محاولاتهم حصار الإسلام في دياره ، ورغم جهودهم التي لا تتوقف في عمليات التنصير إلا أنهم فوجئوا بظهور المسلمين كدولة في قلب أوروبا ذاتها، بل وصمود المسلمين فيها واستشهادهم دفاعًا عن دينهم، ومن هنا فإن شعوبهم لم تثر ضد عجز حكوماتهم الظاهري، أو المصطنع، فتخطيطهم للقضاء على الإسلام يكاد يكون مفهومًا ومعلنًا، ومن ورائهم الفاتيكان. إنهم جميعًا ـ ودون موارية ـ ضد الإسلام والمسلمين ، ولن يستريحوا حتى يقضوا على مشروع الدولة الإسلامية في قلب أوروبا، والله من ورائهم محيط، وهو ـ سبحانه ـ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الدرس الذي تعلمه الصليبيون :

وإذا كان هؤلاءالصليبيون الجدد قد خرجوا بدرس واضح تعلموه من حروبهم المتتالية ضد المسلمين، فهو أنه من الصعب جداً ، بل وربما من المستحيل، أن يخرجوا المسلمين عن دينهم الحنيف، خاصة في المنطقة العربية

التي كانت مهد الرسالة ، وكانت مبعث النبي الأمين، محمد بن عبدالله ﷺ ، ومن هنا فلقد تفتق ذهنهم وفكرهم الشيطاني عن بديل خطير للحرب المباشرة ، وكذا للتنصير الواضح ، والمعلن دون خوف ودون مداراة.

ولقد تمثل هذا البديل في محاولات « التغريب » و « الغزو الفكري والثقافي» لبلاد المسلمين عامة. وإذا كانت الحروب العادية قد استخدمت فيها الدبابة والمدفع والطائرة والبندقية ، فإن السلاح الجديد تمثل في استخدام المدرسة والكتاب المدرسي، والمنهج المنحرف، والصحيفة والمجلة ، والسينما والمسرح، والراديو والتليفزيون والفيديو والكاسيت والبث المباشر.. وغيرها.

الصليبية الجديدة :

وإذا كانت الصليبية ، في صورتها القديمة، قد احتاجت ذات يوم إلى تجنيد الضباط والجنود من أبناء أوروبا، ترسلهم إلى بلاد الشرق المسلم فيقتلون ويؤسرون، حتى قوادهم والملوك، إلا أن الصليبية في صورتها الجديدة أخذت تدرب قساوستها ومعلميها وفتياتها على التعامل الهين اللين والخادع مع شباب المسلمين، في بلادنا وفي الخارج ، وقد أرسلت كل هؤلاء ليحتموا خلف أسوار سفاراتهم ومدارسهم الخاصة في بلادنا، تلك التي أنشأوها تحت دعاوي التثقيف والتعليم، « والتبادل الثقافي » ، وهي صورة واضحة للامتيازات الأجنبية السابقة.

ولنقرأ لأحد كتابنا الواعين عن تعدد « أشكال الهجوم » على بلاد المسلمين، يقول « حسان » : « إذا كان الهجوم لم يقتصر على جانب واحد، فإنه أيضا لم ينحصر في شكل واحد، فتارة يأتي من الخارج ، وتارة من الداخل ، تارة يهجم بأساليب مباشرة، وتارة يتسلل بأساليب خفية، تارة يتحلق من عل، وتارة يتسرب إلينا من أسفل، تارة يتصدره رجال دين، وتارة يقوده سياسيون وعلماء ، تارة يرتدي رداء الكهنوت، وتارة مسوح الأطباء، تارة بالهجوم على ديننا ، وتارة باصطناع مذاهب ونسبتها إلى الإسلام لتدميره من الداخل. تارة

بتصفية قيادات، وتارة بتصعيد أخرى، تارة بشراء الذمم ، وتارة بتوزيع القمح واللبن، تارة بالتهديد، وتارة بالتهويد، تارة بالتمييع ، وتارة بالتجويع، تارة بالفكر المضلل، وتارة بالمدفع المهدد، تارة بالمساعدات، وتارة بقطع العلاقات، تارة بالتحالف مع المسلمين، وتارة باحتلال المسلمين، تارة بزرع الفتن ، وتارة بالتدخل لقمع الفتن، تارة بالتنكيل، وتارة بالتضليل، تارة بالاتفاق مع أقليات، وتارة بتصدير أقليات، تارة بالتسرب إلى منظمات ، وتارة بصناعة أخرى، تارة بإعداد انقلابات، وتارة بالانقلاب على ثورات، وتارة بإنشاء كيانات، وتارة بتصفية أخرى، تارة باحتلال القدس، وتارة بإدعاء العمل لتحرير القدس، تارة باحتلال أفغانستان، وتارة بالمطالبة بالتحالف لتحرير أفغانستان، تارة بالمهادنة، وتارة بالمقاطعة، تارة بتسريب السلاح ، وتارة بمنع السلاح، تارة بإنشاء اسرائيل، وتارة بالدعوة للاعتراف بإسرائيل، تارة بالفرنسة، وتارة بأنجلزة ، وتارة بالأمركة، وتارة بالمركسة.[٤]

وإذا كانت الصليبية في صورتها الأولى قد فشلت في مواجهة أبطال المسلمين في ساحات الوغى، ومعارك الجهاد فإن الغربيين فتحوا أبواب دولهم على مصاريعها يدعون إليها الشباب من جامعات العالم الإسلامي كي يتعلموا هناك فيذهبون ليضيع منهم جزء في مجتمعاتهم الفاسدة، وليعود إلى قومه مخالف لدينه.. وربه.. وقومه، وقد جاءهم بأخطر مما يجيئهم به الصليبي الواضح، حيث يطالب بالانفتاح على الغرب بكل ما فيه من حرية (!!) وإباحية وانحراف.

إن الصليبية الجديدة ، أو الغزو الثقافي والفكري، أو التغريب، أيا كان المسمى، كانت أذكى بكثير وأفعل من تلك القديمة، حيث أن الأخيرة قد استثارت المسلمين ودعتهم إلى التوحد والمقاومة، وإلى الوقوف خلف قيادات إسلامية مؤمنة واعية. أما الصليبية الجديدة فقد التبست على الكثيرين، بسبب

---

(٤) حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

أساليبها الجديدة والمبتدعة، وبسبب وسائلها المتعددة، وبريقها وخداعها، وتعدد ميادينها.. كل هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى فإن المشكلة الكبرى هي أن الذين حملوا لواء تلك الصليبية ونادوا بها كانوا في معظم الأحيان من أبناء الأمة الإسلامية الذين خدعوا ، إذا أحسنا الظن بهم، أو من الذين جعلوا من أنفسهم طابوراً خامسًا لأوروبا النصرانية عن سوء قصد وفساد تدبير.[٥]

خطورة الغزو الجديد:

إن خطورة الغزو الفكري أنه لا يركز على احتلال مساحات من الأرض يندفع أهلها فوراً للدفاع عنها، محاولين جهدهم إخراج الدخلاء المهاجمين ، وتطهيرها من رجسهم، إنما الغزو الجديد ميدان مبتكر من ميادين الاستعمار المتلونة بألف لون ولون ، فمن خلاله تحتل مساحات في العقول والأرواح، وهذه - لعمري - أخطر الاف المرات من احتلال مساحات من الأراضي. إن احتلال مساحات من الأراضي يجعل الناس متحمسين مستفزين للدفاع عنها، أما إذا احتلت العقول، وبلبلت الأفكار والمفاهيم فمن سيدافع عن أصحابها..؟[٦]

إن الإنسان إذا انهزم داخليا فإنه يصبح مسلوب الإرادة ، عديم الفائدة، إنهم يحاولون محو الشخصية العربية الإسلامية، بحيث يصبح الإنسان المسلم تابعًا لا كيان له، سواء في ذلك الكيان الوطني ، أو القومي، أو الديني ، ولا يهم أن يظل اسمه محمداً - مثلاً - وجنسيته من أي بلد إسلامي، إنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستلب الفكر، عديم الشخصية .[٧]

---

(٥) محمد عبدالعليم مرسي: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ١٨.

(٦) المرجع السابق.

(٧) على عبدالكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في الغرب العربي، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م، ص ٨٩.

ويذهب كاتب آخر إلى أن الغزو الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة من الدول الكبرى، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئًا واحداً .. هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية.[٨]

كذلك فإن الغزو الفكري هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم - وبخاصة الدول الإسلامية - وبين تاريخها وماضيها، وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية، وسير أعلامها وقادتها، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثلا إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، فيذهل عن تاريخه ، وعن سير الصالحين من أسلافه ، ويذهل عن حاضره ومستقبله، ويضل عن معالم طريقه.[٩]

أما « الدجاني » فيعتبر أن الانغماس في تيار القبول المطلق للحضارة الغربية في مجتمعنا العربي على مدى القرنين الماضيين قد استقطب قلة (مؤمنة) متعصبة، عبرت عن نفسها، جيلاً بعد جيل ، في محاولات تحويل مجتمعها إلى مجتمع غربي.. مبنى ومعنى ، شكلاً ومضمونًا، ولم تفتر في دعوتها إلى التغريب. ونلاحظ حرص دعاتها على استخدام مصطلحات الغرب ولغاته، وكذا الاستشهاد بتاريخه ، كما نلاحظ انبهار أصحاب هذا التيار بكل ما هو غربي، مستشعرين عجزهم عن التعبير بلغتهم، وملصقين هذا العجز بها، كما يلفت النظر أن (التخريب الحضاري) كان كبيراً حين تولى السلطة مستغربون أرادوا

---

(٨) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت ، (بدون تاريخ) ، ص ١١.

(٩) أحمد صدقي الدجاني : الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩، نوفمبر ١٩٨٤م، ص ص ٩٤-٩٥.

فرض أفكارهم بالقوة، ونكتفي بالإشارة إلى تجربتي «أتاتورك» و « بهلوي » المجاورتين للوطن العربي.[١٠]

والجديد هنا في هذا الرأي هو محاولات فرض التغريب على بعض أوطان العالم الإسلامي بواسطة أفراد في السلطة ، وبطبيعة الحال فإن استخدام صلاحيات المناصب الكبرى، مثل تلك التي أشار إليها الكاتب، تكون ذات أبعاد أوسع في حياة مجتمعاتهم، حتى وإن قاومت تلك المجتمعات. ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتوقف عند هذا المعنى، فأصحاب السلطان الذين يميلون بدفة قوارب مجتمعاتهم ناحية التغريب لا شك أنهم لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة، وانما ربما يكون العكس هو الصحيح، بل إن بعضهم ربما يكون من خريجي المدارس الأجنبية.

(١٠) المرجع السابق.